مأساة الإنسان

الثنائية التي خلق الإنسان عليها عليها تشكل له مأساة ، فقد خلق من روح وطين ، فهو – تبعا للروح التي تشكل جزء من طبيعته – يطمح إلى الخلود والسمو والمطلق واللامتناهي ، وهو إذ يصبو إلى ذلك ويندفع إليه بروحه يجد جذور طبيعته ضاربة في أرض الفناء والمحدود ، فالجزء الطيني أبدا يخالف الجزء الروحاني ، وبين الروحاني والطيني تتشكل مأساة الإنسان .

وإذا ما أشتد وعي الإنسان بوجوده / وتيقظ إحساسه به ازداد تبعا لذلك ألمه وشعر بثقل وجوده ، وأنه لا يزد عن كونه لعنة وسجنا . فالجزء الروحاني فيه دائمًا فاضحًا الجزء الطيني ، ومعددا لعيوبه ونقائصه ووضاعته وهوانه ، ويصبح الوجود عبثا ليس له أي قيمة ترجى ، فما قيمته إذا كان محدودًا ، فترة من الزمن قصرت امطالت وينتهي ، فمهما حدث فيه ، فله أجل محدود .

ولكن تلك الثنائية في طبيعة الإنسان لا يتبعها ثنائية في الشعور ، فهو لا يشعر بشعور روحاني على حدة ، ولكنهما ممتزجان ، ولا يبقى إلا شعور واحد وإحساس واحد بالحياة وبالوجود وبالذات ، شعور بالقلق والتوتر الذي يعكس مأساة الإنسان .

والإنسان من أكثر المخلوقات وعيا بذاته وبوجوده ، فهو دائما يقف أمامه يقيمه ويتامله ويزنه ، وقد لا يخرج بنتيجة من ذلك ، وإن خرج فهي مؤسفة له ولبني جنسه ، ويدور فلسفة المازني حول ثلاث محاور:

- الأول : القيمة الإنسانية .
- الثاني : قدرية الوجود .
- الثالث : عبثية الوجود .

أولاً: القيمة الإنسانية :

ما قيمة الإنسان في الوجود ؟

إذا ما بحث الإنسان عن تلك القيمة ، فإنه مؤشر جد خطير ، فليس هناك إجابة على هذا السؤال فهي من الأسئلة التي تحتوي في صياغتها على الإجابة فالإنسان هو المعيار الحقيقي الذي توزن أي قيمة من القيم ، فكل القيم تتخذ اهميتها ووزنها بمقدار أهميتها وخطورتها لدن الإنسان ..فهو الضوء الذي يسلط على تلك القيم ليظهرها إلى الوجود ، ويعطيها اسماءها وصفاتها ، وفي غياب هذا المعيار الذي به تقيم القيم يضل الإنسان ضلالا بعيدا ، ويلتبس الحق بالباطل وتفقد الفواصل التي تفصل بين المتناقضات من نور وظلام وعدل وظلم وخير وشر ويصبح الوجود الإنساني شديد القتامة وتتغشاه ظلمة مطبقة .

وقد عاصر قصاصنا حربين عالميتين ، استخدمت في إحداهما القنبلة الذرية ولأول مرة في تاريخ البشرية ، وكان للحربين أبلغ تاثير على المازني وبقية الأدباء والمفكرين ليس في مصر فحسب بل في العالم كله ، ومن تأثير الحربين حدث صدع في كل القيم التي تسود العالم ، وزلزلت كل الأنظمة والتي أصبحت تتصارع فيما بينها من أجل البقاء ، وكان وقود هذا الصراع هو الإنسان ، وأصبح يشكل ما تشكله الآلة الجامدة من مدفع أو بندقية ، وأضحى الزمان كأنه رحي مجنونة تطحن البشر طحنا لا تبقي ولا تذر ، يقول دكتور/ زكي نجيب محمود في كتابه

(مع الشعراء) صفحة (٢٠) : " فلقد أحس نوابغ الأدباء أن القيم الإنسانية أهدرت إهدارًا ، وأن الغلبة قد أصبحت للطغام ومن هم دون الطعام ".

وأصبح الأمر خطير والذي عكس تلك الخطورة ورصدها بصدق هو البحث عن قيمة الإنسان وسط تلك الفوضة الكونية ، فلم يعد الإنسان كما كان ، فقد ضاع .ومن الواجب بل من الضروري البحث عنه ، وإذا ما تم العثور عليه يصبح من اليسير العثور على القيم التي اختفت باختفائه ، وإذا اهتزت قيمة الإنسان فالبحث عن القيم نوع من العبث .

ويناقش قضية القيمة الإنسانية في قصة (إبراهيم الثاني) بالفصل الخامس والذي عقده لرصد التغيرات التي طرات علية وعلى زوجته (تحية) بعد وفاة (عايدة) والتي كان يرتبط معها بعلاقة من نوع ما ، ويوضح في حواره بينه وبين زوجته أن فساد الوجود الإنساني لا يأتي من الخارج ، وإنما موطنه الإنسان ذاته ونفسه ، يقول في صفحة (٩٣):(لماذا خلق الله هذه الدنيا وما حفلت به من جمال ؟ وما خيرها لنا إذا كنا سنعمى عنها ؟ هل تذكرين الجبن الذي أكلنا منه ظهر اليوم ؟) .

وكان الانتقال مفاجئا ، ولا صلة له بما هو فيه ، ولكنها ألفت منه هذه الوثبات ، فتبسمت وقالت : (نعم . ماله ؟)

قال : (لقد كان هذا جبنا طيبا وكان طعمه لذيذا . وهو صالح نافع أيضا . ولكن إذا تركناه زمنا كافيا ، إن شيئا غريبا ممتعا يحدث له . تدب فيه حشرة طفيلية نسميها الدودة ، وتتكاثر الديدان ، وتجعله كالأسفنج .من أين جاء الدود ؟ إنه لم يجئ من الخارج ، وهو طفيلي ، وعلامة فساد وانحلال ... أنتجه الفساد الذي

دب في الجبن ، وكذلك النفس لا تفسد بشيء من الخارج بل يكون ما يظهر فيها من الخوالج السود القبيحة نتيجة الفساد الذي اعتراها من الباطن) .

واضجع في كرسيه وغامر وجهه وهو يقول:(يخيل إلي أن من الممكن أن نكون نحن الآدميين ، وغيرنا من صور الحياة ، علامات فساد وانحلال . وعسى ان نكون ظهرنا في هذه الدنيا كما يظهر الدود في الجبن أو المش ، ومن يدري ؟ لعلنا حشرات طفيلية يغص بها كيان ضخم ، فهي تعبث فيه ، كيان ظل موجودًا أكثر مما ينبغي ففسد وصار جديرًا بأن يرمى أو يمحى) .

الصورة هنا مبتكرة وجميلة ... وانظر معي إلى طرفي الصورة لترى إلى أي درك نزل الإنسان – وإن كان لا يعدو عن فرض افترضه المازني هنا – فالدنيا كأنها قطعة من الجبن الفاسد أو مساحة شاسعة من المش ، والإنسان بمثابة تلك الحشرة التافهة (الدودة) وأصدر حكما بإعدام هذا الجبن الفاسد والحشرات التي تعبث فيه .

فالإنسان كأي شيء على الأرض فان ، كائن مستهلك يأتي عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورًا ، يمرض ، يفسد ، يتحلل يفنى ، يشابه في ذلك أدنى الكائنات وأبسطها .

إذن في تلك الناحية بالذات لا تزد قيمة الإنسان على قيمة تلك الدودة ، لأن المصير واحد ، ويخرج الإنسان بمقارنته بما دونه من الكائنات بوجود مشبوح خالي من القيمة ، وفي قصة (إبراهيم الكاتب) صفحة (١٤٣) أثناء لقاء إبراهيم و (شوشو) والتي بدأ الحب يبني جسوره الشفافة بينهما ، وكان الليل صاف والنجوم طالعة عليها ترنو من عليائها ، و (شوشو) مفتونة بهذا الجمال ، ولكن

إبراهيم يحول هذا الجمال إلى وجهة أخرى ، فتلك السماء المتسعة بلا نهاية تعطي إحساسا بصغر وضآلة وتفاهة الإنسان ، فأين مكان الإنسان وسط هذا الكون العظيم ، وفوق تلك الأرض المسجورة والحافلة ، وتحت تلك السماء الممتدة بلا نهاية يقول : (وطال سكونها لأن الليل عظم وقعه في صدر إبراهيم وكان مما يرفه عن أعصابه أن يرسل اللحظ يريد ليخرق به احشاء الظلماء فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ دونها كليلا حسيرا ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين في أجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا ، وكذلك كانا واقفين في ليلتهما تلك هي مفتونة بجمالها ، وهو يكاد يسحقه الرعب ويفنيه الشعور بضآلته إذ يجيل عينه في فيافي السماء اللانهائية ، ثم قال لها كأنما أراد أن ينقل إليها إحساسه بهول السماء وضآلة الإنسان وكل ما يتعلق به أو كأنما كان يعنيه أن ينغص عليها متعتها بهذا المنظر – تقي أن هذه السماء ليست مجعولة للإنسان مهما تكن علة وجودها ، إنه لا شيء ، في الأرض أو في السماء مجعول لهذا المخلوق الذي يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحو الوجود ! بل ليس أقدر من هذه السماء على إشعار الإنسان ضآلته أو لا شيئيته إذا شئت .

فأدارت إليه وجهها وقد سحرتها نبرة صوته وراعها ما في لهجته من المرارة وقالت كأنما تريد أن تصدفه عن هذا الأسلوب من التفكير .

- ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟

فضحك – ضحكة عصيبة – وقال : (يوجد ؟ يوجد ، إن صح بلفظ الوجود – صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شمس ، وتوجد اقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها – هذا ما يوجد ! وضحك مرة

اخرى ولصقت هي به كالخائفة ، وهو عنها في شغل يحدق في السماء وقد شعر فجأة وعلى كل حبه لها – كأنما بينه وبينها بعد ما بين الأرض والمشترى . ومضى يقول :

هذه السماء التي يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن يقذف به في أجوازها اللانهائية ... ليس جمالها الذي يسحرك بالخاطر ولا الباقي ! ها حتى هذه مرجوع وهجها رمادا (وجذبها من كتفها) أنظري هذا النجم الذي يكاد يخبو وميضه بين أخوته نجوم الدب الأكبر كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لعانا ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعي الرثاء ! وتصوري هذه النجوم كلها – كلها – قد خمدت ؟ تصوري عقلك يلتمس طريقه في سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضيء ! تصوري عقلك يصطدم في ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! نحي عينك ! غضي بصرك من السماء إذا أردت أن تستبقي بشاشة نفسك . ففزعت وأقبلت عليه وأسندت رأسها الصغير إلى كتفه وأراحت خدها على جانب صدره وتعلقت يسراها بكتفه الآخرى فأفاق ومسح لها شعرها حتى زايلها الخوف وإن كان لم يزايله هو الاكتئاب ، ولم يفارقه الشعور بما بينهما فرسخ أو فراسخ ! إذن لأمكن أن يبتسم . وخطر له في هذه اللحظة أن ما يعزيه ، لو ان هذا مما يعزي أننا سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا ، وان الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا ، وتخفق فيها قلوب أخرى وترهق عقول جديدة وأنها ستشهد أشجاء طريفة تندب ومسرات ومباهج حديثة تطلب ، ويستعز بها على حين نعود نحن كما سيعود كل شيء قبضة من تراب) .

فهنا يسخر المازني ممن يدعون بان الإنسان محور الوجود . وأن الكون كله مسخر لهذا الكائن ، وأنه السيد المسيطر... ألا ما أهونه ، فكل ما حوله يزيده ضآلة وإذا كان الكون من سماء وأرض مآلها إلى الفناء ولها مالها من الضخامة والعظمة فما بالك بالإنسان ؟ إنه لا شيء بالمرة ، منعدم القيمة وإن الأمر لا يعدو فترة من الزمن يمكث فيها الإنسان ، ثم يمضي ويأتي غيره بدون أن يشعر به أحد .

وتلك النظرة التي ينظر بها المازني إلى الإنسان ليس مردها الغض من شأن الإنسان ، أو إيمانه بعدمية قيمته ، ولكنه يريد أن يعطي للإنسان حجمه الصحيح ويعطي حكما صادقا لقيمة الإنسان ، حتى لا يحاول أن يبسط سلطانه على ما حوله متخذا في ذلك وسائل الظلم والقهر ، يقول د / حامد عبده الهوال في كتابه (السخرية في أدب المازني) صفحة (٢٢٠) (إن المازني باستخفافه بنفسه يمثل استخفافا بالإنسان عموما ، الإنسان المغرور الذي يذهب بعيدا في تقدير نفسه ويظن العالم كله خلق من أجله ، فتستبد به الرغبة في السيطرة على كل شيء ويرى كل ما يحصل ضئيلا بالقياس إلى ما يريد وما يناسب حاجته .وهو في طموحه الشخصي يمثل الطموح الإنساني بصفة عامة ، ذلك الذي لا يعرف حدودا لأطماعه ولا حدود الزمن ، ولكن أنى له ذلك ، وكيف يمكن أن يحطم قوانين الحياة والكون من أجله وكيف يمكن أن يسمح للإنسان بأن يتمادى على ما لانهاية في تحقيق رغباته وملذاته وأطماعه ؟) .

ولا شيء يفسد على الإنسان حياته كما يفسدها الطمع والتكبر ومحاولة الاستحواذ على كل شيء ، وحمله لواء العصيان والتمرد على قوانين الحياة حتى

على خالقه . وهو – الإنسان – وإن كان أعطى نوع من الامتياز عن بقية المخلوقات إلاَّ أنه بهذا الامتياز لن يخرق الأرض ، ولن يبلغ الجبال طولاً .

ثانيا : قدرية الوجود الإنساني :

نظرة المازني للوجود نظرة قدرية صرفة ، فهو لا يملك شيئا لتشكيل وجوده وإنما كل شيء مقدور على الإنسان منذ خلق ، بدون إبداء أي تمرد أو اعتراض عليه فالإنسان أضعف من أن يشكل وجوده بيده .

وربما يكون قد تبنى تلك النظرة لأن أكثر ما حدث في حياته ، كان على خلاف ما كان يريد ، وعندما تحدث أمور على خلاف ما نبغي ، متحدية في ذلك إرادتنا ورغباتنا ، لا نملك إلا أن نؤمن بقدرية الوجود الإنساني ، ودائما يضع المازني شخصياته أمام القدر ليظهر ضعف وعجز وخور الإنسان ، وأن القدر لا يعبأ بتحطيم الإنسان على صخور اليأس والقنوط .

جرى حديث بين إبراهيم الكاتب و(ليلى) ، تلك التي قابلها أثناء وجوده بالأقصر ، وكانا يتنزهان على صفحة النيل في زورق ، صفحة (١٩٠) تقول ليلى :

- إني أكره الرجال .
- فمضى إبراهيم ولم يجب كأن الأمر لا يعنيه والخطاب ليس موجها إليه فالتفت إليه وعلى شفتيها ابتسامة عذبة وقالت :
- أحسبني أسأت الأدب ؟

فقال :(كلا وإني لأعذرك كلما ذكرت التسعة عشر – وأعطف عليك أيضا) فالتمعت في عينيها نظرة خبيثة وهي تقول :

- من حسن الحظ أن الرقم لم يبلغ العشرين .

- فقال وعينيه إلى السماء ، وعلى وجهه آيات الذهول :
- من يدري ؟على أن الواحد المتمم للعشرين .
- وسكت . فسألته وهي تدنو منه :
- لماذا تثول من يدري ؟

فأرسلها ضحكة مفرقة وقال : (وهل في الدنيا من يدري شيئا قد يكون مذهب المرء واضحا والطريق أمامه ظاهرًا ، ولكن الغاية التي يصل إليها بعد الجهد والعناء من الذي يستطيع أن يقول إنها هي التي كان يقصد إليها حين أخذ الطريق) .

فهي قوة فوق الإنسان تسيره وفق إرادتها هي ، ضاربة بإرادة الإنسان عرض الحائط ، مبددة رغباته في فضاء المستحيل ، والمصادفة – وهي تلعب دورًا كبيرًا في النسج القصصي للمازني – تلعب دورًا كبيرًا في حياة الإنسان . في صفحة (٢٦٥) من قصة (إبراهيم الكاتب) ، يقول إبراهيم بعدما عرفت (ليلى) ما كان بين إبراهيم وشوشو من حديثها مع الشيخ (على) أثناء زيارته لإبراهيم في الأقصر أرادت ليلى أن تفصم عرى العلاقة بينها وبين إبراهيم لتعيده إلى (شوشو) ولم تجد من سبيل إلى ذلك غير أن تخبره أن ماضيها ملوث وأنها قد أقامت علاقات كثيرة مع رجال من كل صنف ولون . يصور المصادفة كمبدأ يستند عليه الوجود : (والمصادفة أصل كل حادث في هذه الدنيا التي يخيل إلى المرء أن (الحياة) حدثت فيها المصادفة فإذا لم تكن هي الأصل -- فلا أقل من ان نعترف بأنه مامن حدث إلاَّ لها فيه أصبع غليظة وأن كل تغير أو انقلاب أو اتجاه جديد لا يخلو من بعض نواحيه من مصادفة كان لها تأثير حاسم في هذه الفترة من حياة إبراهيم فقد كان كما عرف القارئ يلهج بالزواج من ليلى . ولم يكن ذلك ليسترها أو يستر

نفسه كما فعل حين عاد الدكتور محمود والشيخ على ولا ليصحح مركزها ، فما كان يجري له في وهم أن بمركزها حاجة إلى التصحيح ، ولا كانت أنباته بالحياة الجديدة في أحشائها . وإنما كان يدفعه إلى ذلك حبه لها ونزوعه إلى الاستقرار من ناحية وإلى المكايدة والعناد من ناحية أخرى ، غير أنه بعد أن صارحته ليلى بما أوهمته أنه ماضيها الحالك ،تردد وأشفق ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى الواقع أو الاضراب عن التفكير في المستقبل مقيسا إلى الماضي ، ومع تردده وإشفاقه كاد حبه لها يطغى على إحجامه ، وكادت معاودة التفكير الهادي توسع في عينيه ما ضيقه العرف ، لولا أن ليلى مدت يدها فجأة فأنقذته) .

فالصدفة هنا هي الوجه الآخر للقدر....فإن لم يكن للإنسان يد في إحداث الصدفة ، فإن تدبيرها يرجع إلى القدر ، والإنسان إذا ما اقتنع بأن كل ما يحدث له من تدبير القدر ولا له فيه ستراح وأزاح كل هم من على صدره ، واخ سبيل من المحاسبة ، ولا يجشم نفسه عناء تحقيق شيء في طي الغيب ... كيف يحاول وهو يعلم أن كل شيء ي يد القدر ...ويريح نفسه من عناء الندم على شيء مضى ، وكيف يندم على شيء ولم يكن في طوقه فعل ي شيء ؟

إنها معادلة يقيمها الإنسان القدري لكي يستريح من عناء الإحساس بالوجود الإنساني .

يقول في (إبراهيم الثاني) صفحة (١١) عندما أحس بفتور من جانب(ميمي) تلك الشخصية التي اقترب منها بغية تحريك حياته الزوجية الراكضة : (وظل بضعة أيام يحدث نفسه كالموسوس بتعبيس صاحبته (ميمي) وكان أمرًا في أصل طباعه الجدالصارم ، وإن كان قد عود نفسه ابتغاء الراحة ، أن يأخذ الأمور من مآخذها

السهلة القريبة وأن ينظر إلى الحياة من ناحيتها المشرقة الوضاءة من غير أن تغيب عنه نواحيها الكالحة ، وكان مما راض به نفسه على ذلك قوله لها وهو يناجيها حين يخلو بها : (إن الدنيا ليست بالجنة ولم تخلق على هوانا ولا كان لنا رأي في خلقنا نحن ، وإنما جئنا لأن نواميس الحياة اقتضت أن نجئ فغير عجيب أن يكون ثم ما يسخطنا ولا يرضينا . ولو ذهبنا نتسخط كل ما لا يرضينا لما عادت الحياة محتملة . فالصبر والحلم وتناول الأمور برفق وتسهل أوجب ما يجب ، وأدل شيء على حسن الفهم وصحة الإدراك ، وليس هذا من قبيل قولهم ليس في الإمكان أبدع مما كان . فإن كل ما في الدنيا قابل لتحسين وإصلاح وتهذيب وإن لم يكن في ذاته غاية في السوء والفساد) .

فهو يرى أن ليس لنا رأي في مجيئنا إلى تلك الحياة . وإنما القضية لا تدخل فيها إرادة الإنسان ، فهي قضية نواميس وقوانين فرضت على الإنسان في هذا الوجود ، وفرض عليه ان يحياها بتلك النوعية من الضحالة والتفاهة .... ولذلك يجب ألا ننتظر من هذا الوجود أن يوافق أمزجتنا ، ولكن ينبغي أن نقبله على علاته حتى نستطيع أن نتحمله ، وننفذ ما قضت به النواميس وما حكمت به القوانين .

ويقول في قصة (ثلاثة رجال وامرأة) ، صفحة (١٠٣) : (وكل شيء في هذه الدنيا اتفاق ، أو حظوظ ، وقسم ، وقلما يغشى التدبير والسعي والطلب غناء المصادفة ، وما أكثر ما (تأتي المقيم وما سعى حاجاته عدد الحصى ، ويخيب سعي الطالب) .

وفي نفس القصة ، وبعد أن عالج الأستاذ (حليم) ما وقع فيه هو و (محاسن) وتخلصا مما في أحشائها نتيجة العبث الذي كان يحدث من الأستاذ

(حليم) – والتي خنقت رغباته الجنسية بعد أن رفضت زوجه معاشرته – لمحاسن تلك الفتاة التي لم تكد تجاوز طور المراهقة ، يقول : (وغنهليخيل إلى أن كل شيء في هذه الدنيا قضاء وقدر. من كان يظن أن الذي لا يحدث إلاَّ في الفلتات النادرة وفي مرة كل خمسين الف مرة ، يحدث لنا من أول مرة . وعلى من هذا التحرز والاحتياط ؟ سوء حظ ليس إلاَّ ... أو قدر جرى به القضاء) .

ثم يقص الأستاذ حليم على محاسن قصة وإن كانت ساذجة ومبتذلة إلاَّ أنها تشي عن اعتقاده ....وفحوى القصة ، سقوط طفل من عمارة عالية ولكنه ينجو من الموت ، ذلك لأن رجلا كان يسير في الشارع – مصادفة – فتلقاه بذراعيه وينتهي من سرد الحكاية بقوله : (فهل آمنت أن كل شيء في دنيانا قدر وقسمة) فربتت على كتفه وقالت : (ثق أني لا ألومك على شيء ولكنه لا يسعني إلاَّ أن أشعركم بألم ومرارة لأني كنت ضحية هذا القدر ، فأعذرني إذا فاضت المرارة على لساني) .

وأغلب شخصيات قصصه تعتقد هذا المعتقد الذي يؤمن بالقدر ، وينصاع ويخضع مستسلما لما ينزل به من تجارب أليمة وصدمات عنيفة ، والمازني هنا يعكس الروح المصرية بصدق كامل ، تلك الروح التي تستقبل كل ما ينزله بها القدر من مصائب بنفس قوية وصدر رحب وقلب ثابت ؛ لأنها تؤمن بعمق بسطوة القدر وأن الإنسان لا يملك إزاءه شيئا .

ثالثا : عبثية الوجود :

إذا نظرنا إلى المحورين اللذين تدور عليهما فلسفة المازني ، وهما القيمة الإنسانية وقدرية الوجود ، أعطيا نتيجة واحدة ، وهي أن الوجود الإنساني ما هو

إلاَّ نوع من العبث ،وقد فهم المازني تلك النتيجة وتمثلها تمثلا صادقا ، وانعكس ذلك على قصصه وعلى نظرته لكل ما حوله ، والمازني من أكثر الأدباء إذا ما اعتقد شيئا اعتقده ليس عقلا فحسب ، وإنما إحساسًا وشعورًا ، وهذا راجع إلى ذاتيته وهو ليس بالمعتقد من خلال اطلاعه أو قراءته ، وإنما مصدره في ذلك التجربة التي عايشها ومر بها ومرت به ، وأثرت فيه أبلغ تأثير ، والمازني يعكس تلك النظرة للوجود ، فقد ركب كل شيء بالعبث والمزاح والفكاهة والسخرية ...وربما يكون سر سخريته هو ذلك الشعور والإحساس الذي يقابل به الوجود الإنساني ، فلماذا يحزن أو يتكدر إذا كان كل ما حولنا عبث ؟ وكل ما حولنا إلى زوال وإلى فناء ، ولكن تلك السخرية واللامبالاة التي يقابل بها الوجود تخفي فيما عميقا للوجود الإنساني ... ففي هذا الوجود الناقص والمتذبذب دائما نحو الامتلاء والخلو ، نحو الاخضرار والذبول ، بعد كل هذا لا يصير كل شيء إلى زوال ، وكما يقولون الأعمال بخواتيمها وإذا كانت خاتمة الوجود هو والموت والفناء ، فإن تلك الخاتمة أو النهاية القاتمة تلقي بظلالها الحالكة على كل ما في الوجود الإنساني ، ويصبح كأنه لعنة حلت بالإنسان على ذنب لا يدري ما هو ولا أين ولا متى ارتكبه !!

ويقف الإنسان حائرا ليلقي السؤال الخالد الذي أعياه جوابه ، ما الحياة ..؟ ما الموت ..؟

يقول في قصة (إبراهيم الكاتب) صفحة (٢٨٤) : (وهبت الريح بي كالمجنونة فعدت وكأني أمشي على ماء لجي يعلو ويهبط ، وسفت الرمال في وجهي حيثما أدرته كأنما أرادت الحياة أن ترجمني ، وتسابقت زمامها إلى أذني فوقفت مكاني

لا أريمه ، وقلت لنفسي : (ماذا يصنع العود النابت في الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو يتقصف !) .

فملت إلى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة وجعلت أفكر في هذه الحياة الغريبة التي يمتزج فيها الصراخ بالغناء ، ويختلط به الألم والطرب وأقول لا شك أن الحياة عمياء صماء ، فليتها توهب البصر هنيهه ، لترى هذا الخليط من الحسن من الحسن والقبح والخير والشر ، ويا ليت من يدري ما تصنع إذن ؟ أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شيء وتمحوه ؟ أم تأخذ في إصلاحه وعلاجه في صبر وأناة ؟ وأم لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاي من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذرته لهذه الرياح !) فهمست في أذني الرياح :

(ما الحسن وما القبح ؟ وما الحزن وما السرور والخير والشر وما الإحساس والعقل ؟ والخصب والجدب والصحة والسقم واليأس والأمل؟ والبكاء والضحك ؟).

ونشعر هنا بأن المازني يرى الوجود فوضى مختلط بالمتناقضات لا يستطيع أن يضع له اسما أو عنوانا ، فلو وهبت الحياة لبصر – وكأنها عمياء – فسوف تخجل من نفسها ، وتأخذ في تحطيم ا الوجود الفاسد ، والمازني يحمل من طاقات الكره والإزدراء لهذا الوجود الكثير ، ولو كان الأمر بيده لحطم كل شيء وأذراه أدراج الرياح ولكن ما سبب هذا المقت الشديد للحياة ؟ وما تلك الظلال السوداء الي تقطر حسر وألما من قصص المازني ؟

يقول الدكتور (حامد عبده الهوال) في كتابه : (السخرية في أدب المازني) صفحة (١٩٣) : (سخر المازني من الحياة ، لأنه على قدر ما عاش فيها لم يفهم جدواها

أدرك منذ الصغر نهايتها ، وربما بأعمق من إدراكه لبدايتها ، فنشأ لديه الاستخفاف بها وبكل ما فيها) .

ويقول : (وقد نتمثل نحن ذلك ، ولكننا لا نشعر بتأثيرات مرضية أو بقلق زائد ولكن إذا كان التمثل مؤيدا بالمشاهدة اليومية ، أو المعاناة أو المكابرة عن قرب فالأمر يختلف وقد لا يتأثر الآخرون بمثل ما تأثر المازني به لأنه مهيأ لهذا التأثر ولأنه مرهف ولم يكن في حياته وفترة صباه ما يجذبه إلى أن يستغرق في الوجود وينسى معه عدمية المستقبل الذي يستحضر قربه دائما ، ولذلك لا ندهش إذا رأيناه يعتبر هذا القدر الذي نعيشه تافها ، مادام الموت ينتظره ويتساءل لماذا خلقنا ؟ ولماذا كان هذا الوجود ؟ ويستخف بكل شيء في غير مبالاة) .

والإنسان قلما يسعد في حياته تلك ، فهي قصيرة ، فالربيع أياما ، والخريف أعواما ، والحياة لا تخلو من منغصات تصاحب كل مرحلة يمر بها الإنسان بدءًا من الطفولة إلى نهاية العمر ، وكيف يشعر بالسعادة والسرور وكل يوم يمضي هي خطوة نحو الموت والفناء ، وأكثر حياته يمضيها بدون إحساس أو شعور ، فهو موجود على الأرض ، ولكنه ليس بحي .

يدور حديث بين إبراهيم الكاتب وبين الشيخ (على) حينما دخلت عليه (زوزو) ابنة الشيخ تعابثه وتداعبه ، وتعجب إبراهيم من تفضيل الشيخ ابنته (زوزو) على ابنه (محمد) بحجة أن الولد وليس البنت هو الامتداد الطبيعي لحياة الإنسان يقول الشيخ : (كلا يا صاحبي ن وليس إيثاري لها لأنها الكبرى ، كلا أيضا أنت شاب فمن حقك أن يكون هذا رأيك في ربيع العمر وللشباب حكمه الذي يؤثر

فيه فلسفة ولا يغيره علم أو اطلاع ويصمت برهة ، ثم يقول كأنما يحدث نفسه بصوت خافت منهدج :

للحياة كما للأيام فصول ، ولكن فصول الحياة تتوالى على غير ميعاد ، وليس كل فصل منها ككل فصل . فقد يكون الربيع أياما والخريف أعواما ! والذي يجيء منها لا يعود ومتى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأي خير ما كتب له في عمره، وإن ما بقى من رحلته في هذه الدنيا أشبه بأن يكون (وجودًا) منه بأن يكون (حياة) استمرار ومجرد اندفاع في الطريق الذي كانت تجري في (الحياة) الأولى ، كما يجري النازل من (الترام) عرف المرء أن أذنه التي كانت تتمثلها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذي كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح ، يخفق بلا احتفال ولا يخرج في دقة عن انتظام) .

والذي يجعل الحياة ويجعل للوجود قيمة يصبو الإنسان إليها أن يحياها أن يكون هناك أمنية يود تحقيقها ، ويشعر غذا ما تحققت أن قد أصبح أسعد المخلوقات على وجه الأرض. ولكن حتى هذا يضعف ويخفت بريقه شيئا فشيئا بل قد يتسرب الملل واليأس إلى نفوسنا بعد تحقيقها ، ويصبح الوجود بعد أن كان ممتليئا ، تسمع فيه أصداء الفراغ في سمائه ، وبعد أن كان أخضر يافعا ، يأخذ في الجفاف والذبول .

يقول الشيخ (على):(وبدأت الآمال والرغائب التي كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها ويهن استلاؤنا على نفوسنا ويضعف أغراؤها

لخيالنا وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ويطيرها النسيم هنا وهناك) .

وكان المازني يشفق من هذا المصير المؤلم ، ويحاول أن يخفف من كثافته القاتمة ، فيتعزى بالذكرى عما فقده وعما صار إليه ، ويقول على لسان الشيخ (علي):(متى صرنا إلى هنا – فإن المرء تهتز نفسه لابنته وترتاح إلى منحها الحب إن هذه الفتاة الصغيرة يا صاحبي تعيد إلى الشعور بحرارة الحياة وقوتها الدافقة في ربيع العمر ، نعم أنها إنما تحيي (ذكرى) ذلك ولا تجدد الشعور ولا تهب القوة التي نفدت ، ولكن الذكرى غناء) .

فهنا وقت التعزي بالذكرى ....وإذا ما أخذ الإنسان يتشبث بالذكرى هذا التشبث القوي ، فقد ضعف عن احتمال الوجود الحاضر ، وآن الأوان لكي يفارق الوجود .

وفي صفحة (٢٦٤) تجول تلك الخواطر بذهن إبراهيم الكاتب بعدما صارحته (ليلى) بماضيها غير الطيب : (ثنى إبراهيم وجهه إلى الحائط وقد تنفس الصعداء – وهذا غريب – ثم ذهب يفكر وهي تحسبه قد أولاها ظهره ريثما ترتدي ثيابها . فخيل إليه أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة باخلاص إلا بعين يمتزج فيها التشاؤم والتسامح وأن الدنيا حافلة بالسوء والمقابح ، وإن الحياة منها – أقوى – فنونها – التثبيط وأن الإنسان يعيش في سنين وسنين ، ويتصل بمن لا يحصى عددهم من الناس ، ولكن ما أقل الموافق منهم ، والذي يسعك أن يتوثق ما بينك وبينه من غير أن يكون هناك مقدار من الملل أو الاحتقار أو الامتعاض أو الخجل وأننا نعلم ذلك ونحن نسعى في الدنيا ونبغي الناس ، وأن خاتمة كل حياة الأسف

والندم وهما جبل ينمو معنا طالعا من تحت أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه في صبانا وما أكثر ما نتوهمه جبلاً رائعًا جليلاً وإنه لرائع وجليل ولكنه مخيب للأمل ويعلو الجبل أمامنا ويتضخم ، ونحن نصعد فيه ونتوغل فرحين بالحياة مغتبطين بالعيش ، ثم لا نلبث على مر الأيام أن نتسهل وندير عيوننا فيما حولنا ونرجع البصر فيما خلفنا وراءنا ، فتأخذ عيوننا شقوق الفضائح وفدافد اليأس وأودية السقوط ومع ذلك نظل نصعد في جبل الندامة ، وماذا عسانا نفعل غير ذلك ؟ ويجيء يوم نهرم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف أنسجتنا ونعيي بالابتعاد ، فنقعد على قمة مريحة وننظر إلى جداول الحياة المنحدرة ، الحياة التي تظل تترقرق ويظل واديها خصبا وإن جففنا نحن واحدا بعد واحد فنتعلل بذكرياتنا وتبدو لنا هذه الذكريات أجمل وأصبى من الحوادث التي ولدتها) . بكل إباء ، ترك (إبراهيم).

ولسيت المأساة في الوجود فحسب ، وإنما أيضا فيمن حولك ، فهو يشعر بالغربة وهو بين ووسط الناس ، فلا هم متوافقون معه ، ولا يشعرون بما يشعر به فقد أحب (إبراهيم) (شوشو) وطمح إلى الاقتران بها ، ولكن كانت العقبة متمثلة في (سميحة) فهي أكبر من شوشو ، والعادات والتقاليد تمنع أن تتزوج الصغرى قبل الكبرى ، وكانت النية مبيتة لدى (نجية) كبرى أخوات شوشو تزويج سميحة من إبراهيم ، ولكن إبراهيم يرفض ذلك ، فليس هناك استلطاف من جانب إبراهيم ، وحينما عرف (إبراهيم) أن نجية ترفض تزويجه شوشو بكل إباء ترك (إبراهيم) الجميع هاربا مع آلامه إلى الأقصر ، وصادف هناك (ليلى) التي نشأت علاقة حب بينها وبين إبراهيم ، ولكنها تركت إبراهيم بعدما عرفت ما

كان بينه وبين شوشو كي تخلي الطريق لشوشو ، ومن قبل (شوشو) و (ليلى) كانت (ماري) ، فلم يستطع أن يكمل مع إحداهن طريقا بدأه .

والأسف والندم يأكلان كبد الإنسان ، وهما معه لا يفارقانه من الأسف على العمر الذي مضى ولا رجوع له . والندم على حياة الإنسان التي انقضت وتقضت ظنا منه أنه من الممكن أن يحياها ، كما يجب أن تحيا .

والمازني - هنا - يصور بكل صدق أزمة الوجود الإنساني ، بكل ما يحمله هذا الوجود من قتامة ومرارة .

يقول إبراهيم الكاتب في صفحة (٧٨) : (ما الحب ؟) وما الشهرة والخمول وما السعادة والشقاء ؟ وما الحياة نفسها ؟) وأعياد أن يهتدي إلى جواب مريح - وأي جواب آخر سوى أنها عناء وباطل ليس يجدي . وليس هذا بجواب وإنما هو همسة الضعف ووسوسة العجز . وصحيح أن الحياة لا فرق عندها بين سعيد وشقي ، ومجدود ومكدود ومعروف ومغمور وعاشق وخلي ، وحيوان ونبات وجماد . ولكن هناك فرقا بين إحساسات المرء بواقع الحياة ، والمرء ليس سر الحياة حتى يطلب منه ان يكون نظره إلى الأشياء كنظرها هي واعتباره لها كاعتبارها) .

ويتساءل المازني : لم يحب الإنسان ؟ إليس كل حب إلى ملال ، ولم يوجد الإنسان أليس كل وجود إلى فناء ؟ ولم يسعى إلى الشهرة إذا كانت مصيرها الخمول ، وما السعادة إذ هي لا محالة ستزول ؟ الكل باطل وقبض الريح وحصاد الهشيم .

الخروج من أزمة الوجود الإنساني

ولكن كيف الخروج من تلك الأزمة ؟ وكيف نتعامل مع هذا الوجود الأعمى ؟

الخروج من هذا يتوقف على نوعية الإنسان . وتلك القدرات التي في حوزته وقد حدد المازني تلك القدرات . فالإنسان – عنده – من الكائنات التي حالما تتكيف مع الأوضاع التي تعارضه . لذلك يجب أن يكون الإنسان – في رأيه- من النوع الزئبقي . كما وصف المازني إحدى شخصياته في (ميدو وشركاه) – سرعان ما يتكيف مع الوضع الوجودي الذي يعايشه . بمعنى إذا كان الوجود بلا قانون يحكمه.أو منطق ينظمه . فلا يجدي أن يحاول الإنسان فهمه بعقله . لأنه – الوجود – يخضع لقانون لا يستطيع الإنسان فهمه أو تقبل هذا الفهم . فالذي ينظم هذا الكون لا ينظمه وفق المنطق الإنساني المحدود الأفق . الضحل العمق . ولأنه فوق فهمه . يتهم الإنسان الوجود بالفساد والنقص ؛ لأنه غير مفهوم له . وخرج المازني من تلك الأزمة أن لا يتعامل مع الوجود بالعقل . فالوجود لا عقلاني . ويوضح هذا حينما يدير حوارا بينه وبين نفسه في قصة (إبراهيم الكاتب) صفحة (١٣١) بعد أن ترك دار الشيخ (على) إلى الإسكندرية وقد استيقن من حبه (لشوشو) : (وحده ؟ كلا . بل معه ...كيف تقول ؟ نفسه تحاوره وتداوره وتناوشه أيضا وتقول له فيما تقول :

- **إنك تحبها . ألست تحبها ؟**

فيقول : (أحبها ؟ ويحي ! لقد كان لي ثوب رجولية زين . فأين وفائي للخلاق الرزين ؟ تجملي أين ؟ وكرامتي ماذا صنع الله بها ؟ وردي النفس إذا جمحت . على مكروها ؟ أحبها ؟ وأسفاه . لقد صرت عاري الهوى ليس لي

ما يستر القلب عن الناظرين . وكأنما هذه الدنيا خواء في عيني خرابا فمن استحي ؟ وماذا يبعث في النفس الشعور بالعزة ؟

ويطلق ضحكة مثقلة بالدموع المحبوسة فتقول النفس ملحة :

- تحبها إذن ؟
- نعم .
- جسمها .
- يفتنني روحها فيه .
- طبيعتها ؟
- نادرة . نادرة .

ويرسل آهة .

فتزداد نفسه عليه شدا ولا تترفق به وتقول :

- إذن لا شك في النتيجة ؟

فيقول : (لا أدري !)

فتعيد عليه الكرة ....

- ألا تظن أنه من المحتمل أن تظفر بزواجها ؟

فيهز كتفيه ويقول :

- **ربما ! ولكن كيف واللعينة أختها تكيد لنا وتعترض سبيلنا .**
- وتكف النفس هنيهة . ثم تعود فتسأل :
- أليس كل حب إلى هلاك ؟ وكل حسن إلى عفاء ؟
- نعم .

obeikandl.com

- وللقلب جمحه أليس كذلك ؟
- نعم .
- أليس أولى بك أن تجعل القلب لجاما ؟
- فيسألها بدوره (كيف) ؟
- فلا تجيب ولا تسمح له أن ينقلب هو السائل وتقول :
- هل لك عمران !
- ماذا تعنين ؟
- هل ضمنت عمرا جديدا غير هذا ؟
- كلا !
- أو هل تعرف أن لعمرك هذا من يرفوه إذا بلي وتمزق ؟
- أي فكرة!
- كم ساعة عشتها بعقلك ؟

فيعجب لسؤالها ويلتفت كأنما يخاطب شخصا محسوسا إلى جانبه ويقول :

- **ياله من سؤال !**
- إن حولك الأرض والسموات تغري العقل بالتفكير .

فيقول مستخفا (نعم ؟)

- كان حقك أن تصقل عقلك لا أن تصدئه !
- يعني ماذا ؟
- يعني أني أراك تطلب الحسن لتغنيه – أليس كذلك ؟

طبيعة الفنان ؟ هيه ؟

obeikandl.com

- لا تسخري بي من فضلك ؟!
- لست أسخر. ولكني أحب الحسن يوجد في غير الإنسان أيضا .
- نعم . ولكنه في الإنسان أتم وأبهر وأوفى تعبيرًا .

فتقول النفس : (أحسبني فهمت : لابد لك أن تسند صدرك القريح أبى شوكة الورد إذ تغنيها ؟)

فيثور بنفسه يلعنها فلا تعبأ وتقول :

- كنت اظنك أحق بأن تحاكي النسور لا القمارى !
- النسور
- نعم ترفع الطرف مثلها في سماء الفكر. ولكنك عبد الحياة . عبدها الباكي الشادي بغنائه الذي لا يعجب الأحرار والطلقاء . واحسب أنك معذور إذا بكيت أسارك وحاولت أن تتلهى في سجنك لا بأس . أرسل صوتك ليؤديه الصدى مقطعا آه نعم .

غن وقل كما يصيح الصبي في الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف . وأحلم على الرغم من الرق والأسر – بالخلود . وغالط نفسك وقل إن الجمال وحي . وإن الحب لا ادري ماذا أيضا ؟ ولكن ألا تسمح لي أن أسألك ما وحي الأزاهير الذي يذكي أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفرافة الغضن فيحاء الثمار ؟ أين وحي الينبوع فاضت به الأصلاد ؟ لا بأس غن يا عبد الأيام أو ألعوبة الليالي !

فلوح بذراعيه وقال : (أوه ! العقل العقل . ليت إذن المقادير حرمتنا هذه النعمة التي لم تغن بها . ماذا عليها لو أنها كانت تركتنا نرعى الكلأ ؟ ماذا تخسر الدنيا لو كانت الحياة حتمنا (فكرة) السماء وسمرت لحظنا إلى الأرض ؟ كنا

نرعى ملء البطون نباتا وننشق ملء الصدور هواء ولا نعد السنين ، فلا سنة جاءت ولا أخرى مضت ن ونحيا ونحن نجهل أننا أموات ، ثم نموت بما كنا أحياء ونلبس الحياة في كل حال راضين ناعمين جاهلين ابتداءها وانتهاءها ، ولكن المقادير أفاضت علينا نعمة الحس فهيهيات ينفع العقل ، نحن أحيا الأحياء ، فلة أحسسنا الحياة بالأعصاب العارية لما كان ذلك يكفي ...والمرء يظلم الله ويجحد فضله إذا خزن ما منحه الله وخبأ ما وهبه ، لالا. إنك تريدين قيمة ليس فيها حلم وعلى أنه يا نفس ، ما الفرق ، آخر الأمر بين من يقول ليس ثم سوى الأرض ، ومن يقول لن تنالوا السماء) .

صراع بين إبراهيم الكاتب ونفسه . تدفعه إلى تحكيم العقل وأن يكون كالنسور رائدة في ذلك المنطق ، ولكنه يعرضها ويتمنى لو انه خلق بلا عقل حتى يقف موقف الرافض للوجود ، لا يريد من الجزء أو الجانب الروحي أن ينغص على الجزء او الجانب الطبيعي حياته ؛ ليعيش ويستمتع بهذا الوجود ن ويعيش جاهلا أنه في لحظة من اللحظات ، بعدت أو قربت سيموت .

وإذا كان الإنسان سيعيش بوحي من العقل ، يفعل هذا ولا يفعل ذاك محاولا في ذلك تعقيل الوجود ، فإنه بذلك يضن مما أعطاه الله من وجود وحياة على نفسه . فالحياة نعمة يجب أن يستمتع بها الإنسان ، وهي قصيرة ، وهو لا يستطيع أن يحياها بالعقل فحسب ، ولو كان هذا المفروض لكان الله خلقنا عقولا صرفة ، ولكنه خلق فينا جزء من طبيعة هذا الوجود ، ونحن نميل إلى ما شابهنا .

وحينما يكون المجال مجال القلب ، فلا مبرر لوجود العقل وأحكامه ، ونلمح ذلك من خلال تحذير نفسه له من التمادي مع (شوشو) ، لأن العواقب ستكون وخيمة وستكون هناك مخاطر ، تقول نفسه في صفحة (١٣٥) :

- هل قدرت المخاطر ؟

فقال بحدة :

(هل كان أنطونيو يجمع ويطرح ويعني بهذه العمليات الحسابية وهو يتلكأ بجانب كليوباترا ؟

- فعادت تسأله : (ولكن المسئولية) .
- فقال : (إني أعلم أن المسألة خطيرة ، ولكن الرجوع لا سبيل إليه الآن ، ثم إني لا أريد أن أتراجع .
- فسألته : (ومتى تخطبها ؟)
- فقال : قريبا في أول فرصة .
- وإذا رفضوا ؟

(آه إذن أدفن سري في قلبي ولا أرثيه حتى بقصيدة) .

فليس العقل هو المطية المناسبة كي نسير به بين جبال وكهوف وأودية وبحار الوجود ، فهو لا يتناسب وتعرجات وتناقضات الوجود ، فالعقل لا يستطيع أن يعيش بين المتناقضات ، فليس أمامه إلا خياران ،أما أن يوفق بين المتناقضات أو يترك الأمر برمته ، بينما التناقض صفة من صفات الوجود لا يستطيع العقل إزالته ، والحل الوحيد لتلك المعادلة هو استحالة التعامل بالعقل مع الوجود .

يقول دكتور حامد عبده الهوال في كتابه : (السخرية في أدب المازني) صفحة (٢٣٤) : (كان المازني قوي الإحساس بالحياة سريع التجاوب معها ، والحياة ليست لونا واحدًا ، ليست مرارة دائمة ولا حلاوة دائمة ، ترق وتعذب فتشرق نفس المازني ، وتصفو وتنطلق في فكاهات ساخرة من كل ما يقف في تيار هذا الاشراق أو يحاول أن يعطل هذا الانطلاق ، وتقسو وتشتد فتتأثر النفس لها وتشتد أكثر فيبدأ شعور المازني بأن الحياة تتحداه وتقصده هو فتأخذه العزة ويقابل الألآم بروح انتقامية متعالية ، وهنا يكون استهتار من نوع آخر واستخفاف لا يخلو من مسحة حزن .

ثم تعود الحياة إلى بسمتها ، وتحلو من جديد ، وتزايلها الكآبة وتبدو منبسطة الأسارير فتعود إلى المازني سعادته بها وحبه لها ، وربما تأمل هذا التضارب وهذا التقلب فبدأ له الأمر شبيها بلعب الأطفال وعبثهم ، كأنالحياة لا تخضع لقانون وليس لها نظام ثابت أو هي غير جادة ، بل عابثة بنفسها ، وبمن عليها ، فلا أقل من أن تهون في عينه ، وتصبح مادة لسخريته وفكاهته ، والواقع أن هذه السخرية تميل ميلا عن الكاتب للوصول إلى حالة التوازن والرضا عن الأوضاع السائدةمن حوله عن طريق إعطائها ما تستحق ووضعها في المكان المناسب) .

إنه لا يجشم نفسه عناء تنظيم الكون أو إعادة خلقه على أسس سليمة ، فهذا نوع من الغباء ؛ لأنه من المحال أن ينظم الإنسان الوجود حوله ، ولكن الذكاء في أن يقبل الوجود على ما هو عليه - في رأي المازني – لذلك تجد كل شخصياته في قصصه لا تجاهد ولا تكابد ولا تصارع ، لأن بداخلها وعي ذاتي عميق لطبيعة الوجود ، وهو أن الإنسان يجب أن يتوافق وطبيعة الوجود حوله ، وليس العكس

فالصراع لا وجود له ، وان بدأ فهو لا يصل إلى نهايته ، فهو صراع مجهض وسنتحدث في نوعية الصراع في قصصه في مكانه المناسب من هذا البحث .

استعذاب الألم :

بعدما عرض لنا المازني مخرج من أزمة الوجود الإنساني ، وهو التعامل مع الوجود من مبدأ لا عقلانيته ، يعرض المخرج الثاني من تلك الأزمة وهو (استعذاب الألم) وفي الحقيقة القبول والتسليم بلا عقلانية الوجود ، ليس هو بالضعف بمكان ، ولا هو بالاستجابة السلبية ، لأنه سيترتب عليه تقبل إفرازات هذا الوجود من شقاء وألم وشر ، ولا نستطيع تقبل الألم وتحمله إن لم يكن لدينا من القوة والقدرة والإرادة الكثير ، بحيث لا يصبح الألم له هذا الوقع المخيف ، والتي ترهبه وتخافه النفس .

والألم يصاحب الإنسان منذ ساعة الولادة إلى أن يفارق العالم ، والوجود حافل به ، إذن لا مفر من أن نتعامل معه بشكل أو آخر ، وإلا لن يحتمل الوجود واستعذاب الألم موقف حازم من عبثية الحياة ولا عقلانية الوجود ، ويتخذ مظهر التعالي ولا استخفاف واللامبالاة بهذا الوجود ومشاكله .

والمازني يشعر بالوجود شعورًا قويًا نتيجة ما مر به من أحداث وتجارب مؤلمة ، ولم يجد مخرجا من هذا سوى التعالي والاستخفاف ، يقول د / حامد عبده الهوال في كتابه صفحة (٢٢٢) : (وقد عرفنا من حياة المازني وظروفه الشخصية ما كان له آثار بعيدة المدى على انتاجه وعلى أسلوبه وعلى نظرته للأمور من حوله كانت له طفولته التي لم تخل من الآلام والمشاكل التي امتدت به حتى سن الشباب وقاس من اضطرابات الحياةالعائلية والمهنية والمالية والأدبية ، وربما تخلفت عن

ذلك أثقال على النفس اتخذت مظهرًا متشائمًا قاتما أحيانا ، وكان يمكن أن تظل هذه نظرته إلى الحياة لولا أنه يملك هذه الموهبة القادرة على مواجهة كل شيء بالتعالي والاستخفاف . وهذا هو السر في أن المازني لم يفقد مرحه ، ولم يضيع هذا الجانب العذب من شخصيته فبقى مثلا للروح المصرية في خير مظاهرها من حب الفكاهة إلى درجة الولع . وإرسال النكتة على سجيتها في أي المواقف والتغلب على الشدائد بالمرح واللامبالاة) .

إنه انتصار للإنسان ضد الوجود ، وتلك هي عبقرية المازني ، فرغم فساد كل شيء وتفاهته ، إلا أنه يعيش الوجود ويضفي من لدنه إليه معنى ومغزى ، ويعيشه ويحياه بشقائه بألامه ، بشره ، بتناقضاته ، وليحاول أن يجعل لكل شيء معنى لا شيء يمنعه من أن يعيش وجوده ، وهو يعرف إمكانيات هذا الوجود ، ولا يطلب أكثر من تلك الإمكانات حتى لا يشقى ، فالوجود فان ، فلا يطمح إلى الخلود والوجود مفعم بالشر فلا يصبو أن يكون خيرًا صرفا ، والوجود وضيع وتافه فلا يتمنى منه الرقي والسمو . وكما قالت (ليلى) في قصة (إبراهيم الكاتب) : (كلا! لن أشقى . أو فلأشقى سيان ، إنما تنشأ الأحزان لأن الإنسان يفرض لسعادته ثمنا) .

ويقول إبراهيم الكاتب لشوشو في صفحة (١٣٨) : (اسمعي يا شوشو . لقد أهاب بنا نيتشة أن نحيا حياة خطرة ولكني أقول أنه ينبغي أن نحيا حياة أيضا مؤلمة أن الألم لا سخيف ولا بشع ، انظري هذه الشمس التي تنحدر نحو المغيب . إن للشمس بقعها ، والشمس على الرغم من بقعها هي حياة الأرض ، هي وحدها حياتها والسعادة أيضا لها بقعها . ولك أن تسميها ألامها ، ولكن هذه الألام هي التي

تجعلنا نقدر السعادة التي نفوز بها ، والحياة بالقلب هي الحياة الثانية ، أما من يبلد قلبه من يخنقه ، فهذا إنما يحيا حياة هندسية في ناحية واحدة وأحسبه مهما حاول لن يستطيع أن يقنع نفسه بعقله وحده ، وماذا يصير الناس في عالم تسيطر فيه العقول أتم سيطرة على القلوب ؟ ينقلب الرجال (نظريات) ذات لحى وشوارب والنساء ملاحق لها والحب لوغارتمات للرغبات) .

إنها دعوة يصدع بها المازني ... أن نعيش الوجود سعداء ضاحكين مستخفين بكل شروره وألآمه ... فغن الحياة جد صغيره لا ينبغي أن نضيعها في البكاء على فساد الوجود ، لنخلق بأنفسنا السعادة إن لم نجدها حولنا ، لنزرع الإبتسامة في قلوبنا إن لم بنيتها الوجود لنا ، لنبسط اشرعة الجمال إن كان الوجود مقفرًا منه ، لنجعله من داخلنا نحن ، وهذا هو سر فكاهات وسخريات المازني ، يريد أن يتغلب على الوجود ، فهو في صراع حاد معه ، ولم يجد من أسلحة سوى الضحك والإضحاك أن يبعده عن الوجود ، او يحطمه من خلال تركيز وتكثيف قبح الوجود في عينيه .

في (إبراهيم الثاني) يخاطب صديق له حينما ألح عليه وسواس المرض يقول في صفحة (٥٣) : (... وأرح نفسك من هذه الوساوس وابتسم ، وأضحك والعب وأدخل السرور على نفسك ولا تجالس من يقول لك أن الدنيا دار شقاء وأن الحياة ذميمة ، فما أعطينا الحياة لنشقى بها بل لنحياها على خير ما نستطيع وفي أسعد حالة تتيسر لنا ...ثم ما هذه الضجة بالله ؟ ماذا نخاف ؟ أهو الموت ؟ فإنا جميعا أبناء الموت ولا مهرب لنا منه ، ولو أعطيت أقوى قلب في الدنيا لما منع ذلك ان تموت في يوم ما ، فلماذا نعني انفسنا بالموت طول حياتنا ؟ وإنه لحال مقلوب – في شبابك

لا تضحك فإنك ما زلت في شبابك – أقول في شبابك يسود الخوف من الموت عيشك وتعلو سنك شيئا فشيئا ، وتدلف إلى الكهولة والشيخوخة فيكون من أثر هذا أن يوطن نفسك ويروضك على المصير المحتوم ، وفي الشيخوخة يشعر المرء بالبلادة كلما طاف برأسه خاطر الموت – لن الشيخوخة عبارة عن تبليد هو بمثابة الإعداد للموت – ففي صباك ... وفي نضارة عمرك في عهد القوة والفتوة واستطاعة الانتفاع بالحياة والاستمتاع بها ، تنغص على نفسك هذه الحياة وتفسدها بالموت والفزع ثم ينقضي الشباب الذي لم تصنع به شيئا ولم تركب به ما يركب ، وتجيء الشيخوخة – إذا أمد الله في عمرك – فيفتر وقع الموت في نفسك ولا يعود له ذلك التنغيص القديم ، ولكن ما الفائدة حينئذ ؟ أليس هذا حالا مقلوبا . اذهب ...اذهب يا رجل واخشن . وانتفع بما لا يزال لك من شباب) .

نعم ... نهية الوجود هو الموت والفناء ، ولكن إلى أن تأتي تلك النهاية ينبغي للإنسان أن يستمتع بوجوده وبكل ما وهبه الله من نعم ... ولا ينبغي أن نمضي عمرنا وشبح الموت يلقي بظلاله على حياتنا ، ولا ينبغي أن يأخذ تفكيرنا في الموت – هذا التفكير المرضي – إلا لحظات ، وهي اللحظات التي يحضر الموت فيها للنفس وإلاَّ بتفكيرنا الدائم فيه فإننا نموت كل يوم ، وكل لحظة نفكر فيها هذا التفكير الممض .

نعم ... الوجود فاسد ، ولكن هل هذا يمنع أن نعيشه ؟

وهو قبيح ، ولكن هل هذا يمنع أن نحياه ؟

لنكن أقوى من الوجود ، لنتسامى فوق نقائصه وعيوبه ومقابحه ... المهم أن نقبله ولا نرفضه ، نستسيغه ولا نمجده ، فالوجود غابة ملآنة بالأشواك والأفاعي

ومعارك الحيوانات الضارية التي تريد أن تلعق دم الإنسان ، وبجانب كل هذا يوجد الأزهار والثمار والظلال ، وعلى الإنسان أن يعيش وسط تلك الغابة ، ويتحمل فحيح الأفاعي ، ومعارك الحيوانات ليظفر بالأزهار والثمار والظلال ، فالوجود قاس ، ولا يعيش فيه إلا من كان أقسى وأقوى من شرور وآلام الوجود ... فهي دعوة يطلقها المازني لنكون أقوياء ، لنقبل تحدي الوجود ، ولننتصر على قبحه وفساده وانحلاله .

الصراع المجهض عند المازني

تتوقف جودة العمل القصصي على استكمال الصراع لكل مقوماته وقيامه على أسس تتوافق ومنطلقية الغرض القصصي الذي افترضه القاص منذ البداية والصراع يمر بمراحل ليتشكل شيئًا فشيئًا في النهاية ، لتتمثل ذروة الصراع أو الأزمة التي تقع فيها الشخصية المحورية أو الشخصيات ، لتواجه نفسها والشيء المتصارع معه ، ثم تبحث عن حل لتلك الأزمة أو تحاول الخروج من هذا الصراع .

ونوعية الصراع يجب أن تتوافق وطبيعة الشخصية ، حتى يكون الصراع حادًا ، ويلقي من الأبعاد والمعاني ما يبرزه بصورة واضحة جلية إلى الوجود .

ويبادر سؤال إلى الذهن : هل نوعية الصراع هي التي تحدد أمزجة الشخصيات أم أمزجة الشخصيات هي التي تحدد نوعية الصراع في القصة ؟

وعلى كل فيجب أن يكون هناك توافق ما بين نوعية الشخصية وتكوينها النفسي والمزاجي وفلسفتها ونوعية الصراع ، وإلا سيفقد حركته وتصاعده نحو الذروة ، ولن تتبلور حدة الأزمة على امتداد القصة ، وإن حدث هذا فستصبح الشخصية مطموسة الملامح والسمات ، ليست لها أي تميز أو تفرد .